

قلعة مدينة الجزائر من خلال الكتابات الفرنسية

دّة / لطيفة بورابة
معهد الآثار-

أ.ة / شفيقة عيساني

أ.ة / مساعدة - قسم التاريخ-
جامعة الجزائر

ملخص :

تتناول هذه الدراسة معلما من أهم معالم مدينة الجزائر، وهي قلعة أو قصبة المدينة، التي حظيت باهتمام الكتاب خاصة الفرنسيين الذين رافقوا الحملة الاستعمارية الفرنسية بوصفها مقرا للسلطة الجزائرية. وكان من أبرزهم الطبيب بونافون وباقو وكلاين. فأوردوا لها وصفا دقيقا ومفصلا من حيث شكلها المعماري والفني ذو الطابع الشرقي الإسلامي المتميز، وكل مرافقها المدنية والعسكرية. وهو ما يتيح للقارئ التعرف على هيئة المدينة وقصبتها قبل أن تتعرض للطمس والتشويه من قبل السلطة الاستعمارية.

حازت مدينة الجزائر على إعجاب الأوروبيين الشديد واهتمامهم، وأخذ منظرها من البحر بألبابهم، فوصفها قيوشان (Guiauchain) بدقة قائلا : « إن هذه المدينة هي معلّم لرياس البحر،

تمتد على بساط أخضر كأنها برنوس أبيض، تمثل قلعة القصبة - مقر حكم الداى- رأس البرنوس، وتتمتع بنظام دفاعي في القسم السفلي منها، وهو على شكل حزام من الأسوار ذات الشرافات.¹

وتقع مدينة الجزائر على خط عرض 36° - 47° شمالا، وخط طول 44° شرقا، ويأخذ موقعها شكلا محدبا مواجهها للبحر، الذي يفصلها عنه مسطح ذو عرض متفاوت، يرتفع عن مستوى سطح البحر بنحو عشرة أمتار.²

ويرجع تاريخ نشأة مدينة الجزائر إلى عصور غابرة، تتعدى فترة الاحتلال الروماني، إلى الحقبة الليبية، حيث أن الأدلة التاريخية التي بحوزتنا قبل الوجود الروماني، تفيد أن هذا الموقع كان مأهولا، وكان يسمى إيكوزيوم، وقبل ذلك كان يسمى إكوسيم، ويبدو أن التسمية واحدة، لأن التحريف يمكن أن يحدث في الفترة نفسها، لذا لا نجد فرقا كبيرا بين الاسمين، سوى (السين) الذي تحول إلى (الزين). فالوثائق المادية هي الشاهد المعتمد عليه ومنها الاكتشاف الأثري المؤرخ بعام 1940م، الذي كشف عن قطع نقدية من الرصاص والبرونز تحمل نقش إله فينيقي يدعى ملكار (Melquart)، وهو دليل على تواجد الفينيقيين واستقرارهم بها، لأنهم لا يمكن أن يستقروا في موقع خال خاصة وهم تجار، وقد تمثلت تلك الاكتشافات في مائة وثمانى مسكوكة وجدت في أرضية لورشة تابعة للتسيير العقاري) ضربت بين منتصف القرن

الثاني والأول قبل الميلاد، وتحمل على أحد وجوها نقش ايكوسيم (Icosim) ومعناها جزيرة الشوك أو طيور البحر، ثم دخلت الصيغة اللاتينية على التسمية في العصر الروماني، فأصبحت إكوزيوم، كما يرجع أن التسمية اشتقت من كلمة إيكوزي، هو العدد العشرون الذي يحتمل أن يكون متعلقا بعدد الجزر أو الصخور التي كانت بالمكان³ فقد استولى عليها الرومان لتصبح جزءا من الإمبراطورية الرومانية، ثم بنيت فيها أسقفية تعود إلى تاريخ معلوم من العهد البيزنطي.⁴

وبقيت المدينة على هذه الهيئة إلى غاية القرن الخامس الهجري / العاشر الميلادي، حيث برزت على ساحة الأحداث التاريخية، حيث استطاع بلكين في عهد أبيه زيري بن مناد أن أعاد بناء المدينة وتوسيعها في موضع جزائر بني مزغنة سنة 350 هـ/ 950 م.⁵ وقد تناولت المصادر الإسلامية لاسيما مُدونات الجغرافيين المسلمين، عن وصف مدينة الجزائر، وكان الإدريسي من الذين وصفوها في القرن الرابع الهجري بما يلي «الجزائر لبني مزغنا...و مدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون البحر عذبة ومن آبار...»⁶.

وفي القرن الخامس الهجري/الحادي عشر ميلادي، ورد وصف هذه المدينة في كتاب البكري، (المسالك والممالك) «...مدينة جزائر بني مزغنة وهي مدينة جليلة، قديمة البنيان، فيها فرش

بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء، صور الحيوان بأحكم عمل، وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان، ولا تعاقب القرون، ولها أسواق ومسجد جامع⁷ (مسجد المرابطين)، وكانت بمدينة مزغنة كنيسة عظيمة بقي منها جدار، وهو اليوم قبلة الشريعة للعديد... ومرساها مأمون، له عين عذبة، يقصد إليها أهل السفن من إفريقية والأندلس وغيرهما...»⁸

كما ذكرها الدمشقي (ت 727 هـ) في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) في وصفه الممالك المغربية «... وجزائر بني مزغنة، وهي مسورة»⁹

حافظت جزائر بني مزغنة في العهد الإسلامي على عمرانها، ففي عهد المرابطين شُيد مسجدها الكبير (590 هـ/1092 م)، ثم اتخذها الموحدون قاعدة عسكرية في مواجهتهم لثورة بني غانية المايورقين أعقاب المرابطين، ثم تداول عليها حكم الحفصيين والزيانيين وعلى إثرها اتسع عمرانها، وصارت مركزا إقليميا حكم منه الزيانيون مناطق متيجة. ومع ضعف سلطتهم في القرن الثامن الهجري نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، استقلت مدينة الجزائر بشؤونها، وبقيت على صلة بعرب الثعالبة المستقرين بمتيجة.¹⁰

وعرفت مدينة الجزائر مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر هجمات إسبانية خطيرة، هددت أمنها، شأنها في ذلك شأن المدن الساحلية الأخرى، وفي نفس الفترة شهدت نمو

ديمغرافيا كبيرا نتيجة توافد الأندلسيين الفارين من الاضطهاد المسيحي والحروب الصليبية إثر حركة الاسترجاع (Requiquista)، وتبعاً لذلك حدث توسعاً كبيراً للمدينة.¹¹

وبقي الخطر الإسباني يهدد المدينة خاصة بعد استقرارهم في حصن البنيون (Forteresse de) Pénon الواقع على الجزر المقابلة لها، فقد أشار صاحب كتاب (غزوات عروج وخير الدين) إلى هذا الخطر الذي شكله الحصن على أهالي مدينة الجزائر فذكر: « أنه كثيراً ما كانت تحصل منه الإذاية لأهل المدينة بحيث أن النصاري كانوا يرمون على أهل المدينة بالمدافع والمكاحل فكان هذا شجى معترضا في صدور أهل الجزائر إلى أن خلصهم الله منه على يد زعيم المجاهدين خير الدين».¹²

وهو ما دفع الجزائريين إلى الاستتجاد بالأخوين عروج وخير الدين بربروس، حيث حاول الاسبان السيطرة على مدينة الجزائر في الفترة الممتدة ما بين 1516 – 1519 م ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، خاصة مع جهود الأخوين عروج وخير الدين، فبعد وفاة الأول عام 924 هـ/1518م، خلفه أخوه خير الدين الذي أقام بمدينة الجزائر عام 931 هـ/1525م، نزولاً عند طلب أهلها فقدم من جيجل، وعمل على وضع حدا للخطر الإسباني، فهدم ذلك الحصن المنيع الذي بناه الاسبان على أكبر الجزر المتواجدة في خليج مدينة الجزائر، واستعملت بقايا الحصن المدمر في بناء الرصيف الذي يربط الجزر بساحل المدينة وتكوّن بذلك

ميناء مدينة الجزائر،¹³ وبالرغم من أن أبعاده كانت محدودة إلا أنه كان يُرعب المسيحية لمدة ثلاثة قرون (La terreur de la chretienté) لتمكنها من السيطرة على الملاحة في البحر الأبيض المتوسط.¹⁴

ونظرا لما قام به خير الدين من مجهودات لحماية وتحصين مدينة الجزائر طلب منه أهل المدينة البقاء لمواجهة الخطر الخارجي، ولقد ورد ذكر تفاصيل هذه الحادثة في كتاب غزوات عروج وخير الدين، حيث ذكر « أنه عندما عزم خير الدين على السفر وترك المدينة ومواصلة الجهاد فجمع أهل الجزائر وأعيانها من العلماء والصلحاء والمشايخ وأعلمهم بنيته في الرحيل إلى إسطنبول لاسيما بعد التأمين على البلاد، إلا أن سكان المدينة طلبوا منه البقاء للذبّ عن المدينة وأهلها الضعفاء فأجابهم خير الدين بإمكانية بقائه على أن تلحق المدينة بسلطة الخليفة العثماني ويستفيدوا بذلك من دعمه العسكري والمادي "فرضي أهل المدينة بذلك وكتبوا كتابا كما أمرهم، وكتب هو كتابا آخر وعين أربعة أجفان برسم السفر إلى حضرة السلطان»¹⁵.

وتمّ بذلك رفع طلب الجزائريين إلى السلطان العثماني بالقسطنطينية، وتمت الموافقة، وأرسل الخليفة العثماني 2000 جندي مجهز على حسابه، والتحقّت هذه الكتيبة التركية بالجنود الجزائريين وتمكنت تحت إمارة خير الدين من السيطرة على كل المنطقة.¹⁶

وصف مدينة الجزائر وقلعتها :

تعتبر قلعة¹⁷ مدينة الجزائر جزءا لا يتجزأ من مخطط المدينة العام، ولقد ورد وصفها لدى الرحالة الأوروبيين في كثير من المواضع، لما تتمتع به من مميزات معمارية وحضارية، اكتسبتها عبر المراحل التاريخية الهامة.

فوصفها الطبيب الفرنسي بونافون (Dr Bonnafont) الذي رافق الحملة الفرنسية عام 1830م المنطلقة من مدينة تولوز، وأقام بالمدينة إلى عام 1842م، وكان يشغل منصب رئيس الأطباء بالجيش الفرنسي، ومن أهم ما ورد في وصفه للمدينة ما يلي « بنيت مدينة الجزائر على تلة مرتفعة على شكل مُدرج أو مثلث تركز قاعدته على المنحدر، طرفاه هما باب عزون وباب الواد، ويلتقيان في نقطة التقاطع العليا، وهي حصن القصبة (Fort de la Casbah) الذي يمثل رأس المثلث، وتتسع الجهة الثالثة لتتحدّر إلى جهة البحر أو الميناء. وهذه الوضعية الطبوغرافية للمدينة تدل على دارية المسلمين بفنون التحصينات، ومنشآتها، فالمدينة تتحدّر على الهضبة، ومطوقة بحزام من السور المجوّف ذو فتوحات ويختلف ارتفاعه حسب طبيعة الأرض المحيطة به.»¹⁸

وواصل الطبيب بونافون وصفه المدينة قائلاً أن بها خمسة أبواب:

أولها في وسط الزاوية السفلى للمدينة وتعرف بباب عزون

ثانيها باب الواد : الواقع شمال الزاوية السفلى وسميت بذلك

نسبة للواد الذي يجري في ضواحيها.

ثالثها باب الجزيرة : يقع على الميناء في الجهة اليمنى إذا ما وصلنا من ناحية البحر، وأصبحت تعرف منذ الاحتلال الفرنسي باب فرنسا أو باب البحرية.

رابعها باب البحر : الواقع على الميناء.

خامسها باب الجديد الواقع في الوسط بين باب عزون، والقصبة (القلعة)

سادسها باب المنصورة أو باب النجدة، وهي - حسب هذا الوصف - تفتح على الأسوار الخلفية للقصبة وكانت تعرف قبل الاحتلال بباب القصبة.

وأضاف بونافون أن المدينة كانت تنقسم إلى قسمين أساسيين القسم العلوي والقسم السفلي، وفي عهده كان القسم الأول يسكنه الأهالي، أما القسم السفلي فأصبح مأهولا بالعنصر الأوروبي.¹⁹

تعتبر القلعة من أهم معالم المدينة، وهي تقع على مسافة 118 م من مستوى سطح البحر، وقد شرع عروج في بناءها عام 1516 م.²⁰

ومنذ شوال 1232 هـ/ 1816 م أصبحت قلعة الجزائر مقرا للداي، حيث ذكر شريف الزهار نقيب أشرف الجزائر في مذكرته، أن علي باشا الذي كان من خوجات الأتراك، غير مقر الإمارة من قصر الجنيينة الذي كان مقرا للديوان إلى حصن القصبة²¹ ليلا بمساعدة بعض أهالي المدينة. ولقد أورد وصفا هاما

لهذا الحدث فكتب «...خرج الناس من بيوتهم - غداة انتقال علي باشا إلى حصن القصبة- التقوا مع الذين طلّعوا معه للقصبة في الليل وأخبروهم بأن الباشا انتقل في الليل إلى القصبة وسكن بها...». ويبدو أن علي باشا أدخل تحصينات على القلعة، وحسّن نظامها الدفاعي حيث ذكر نفس المصدر أنّه «... رجع الناس واشتغلوا بحرفهم واشتغل هو ببناء القصبة وزاد في تحصينها»²²، وأحكم مراقبة منافذها ليؤمن من تمردات الجيش المتكررة على الدايات عند حدوث الخلافات الداخلية²³.

لكن من المؤكد أن القلعة (القصبة) قد بنيت على مراحل متباعدة، وتشير الدراسات أن اللبنة الأولى منه وضعت في عهد عروج عام 1516م، لكن هذا التاريخ لم نجد له سنداً، إلا أن الدلائل المادية أكدت أن المرحلة الأولى من البناء قد بدأت منذ النصف الأول من القرن السادس عشر، وفي هذا الإطار ذكر ديفولكس (Devoulx) أن هناك رسماً نفذ للجزائر بين 1570-1572م تظهر فيه المدينة على شكل شبه منحرف، يوضح القصبة ويعينها بسور محصن، وأشار إليها تحت تسمية القصبة الجزائر المحصن (La Alcasaba forterza d'Algiera).

ويمكن حصر المراحل الأساسية التي بنيت وفقها القصبة حسب الكتابات الأثرية :

- المرحلة الأولى : تمتد من 1516 م إلى 1600 م

- المرحلة الثانية : تمتد من 1600 م إلى 1817 م

- المرحلة الثالثة : تمتد من 1817 م إلى 1830 م

- المرحلة الرابعة : تمتد من 1830 م إلى 1962 م²⁴

وعن تاريخ إنشاء وأعمار القلعة ، ذكر كلين هنري (H.Klein) أنه يوجد على يمين المدخل توجد كتابة أثرية باللغة العربية تشير إلى تاريخ إنشاء والانتهاه من بناء هذا المعلم وهو 1000 هجري الموافق لـ 1591 م ، كما توجد نقوش أو كتابة أثرية في مصنع ملح البارود وهي مؤرخة في 1830 ، ونصها « فالتسعد الجزائر ويدوم حيورها (استبشارها) النصر لله. ونظم مصنع البارود تنظيمًا محكمًا ليصبح نموذجًا جديدًا يعتنى به، وبناها في سبيل الله الحاج علي أمسيالي - نسبة إلى مدينة أماسيا بالأناضول- عطاء إلهيا من أجل الجهاد المقدس، البايات المتصرين يشحنون البنادق بالبارود، فليوجهوها نحو الكفار، ولتُقذف للانتقام، وسجل العلوي تاريخ الانتهاء من بناء القلعة عام 1230 على حساب الخزينة المالية»²⁵

وصف القلعة عند الرحالة الأوروبيين : (لوحة رقم 1) و(لوحة رقم 2)

لقد وصف الرحالة الأوروبيين القلعة وصفا دقيقا ، وكان من أشهر من وصفوها الفرنسي بافوا (Bavoux) ، الذي رافق الحملة الفرنسية عام 1830. فعن موقعها كتب « أنها تقع في أعلى المدينة وهذا الموقع الرائع والهام يعطيها منظرا مهيبا ، فهي على سهل واسع ، وتحيط بها جبال تحاصر المدينة والقصبة من كل الجهات ، وقد نصبت على شرف القلعة مدافع لغرض حمايتها»²⁶

واعتبرها من أكبر عجائب مدينة الجزائر، فهي كما يعرفها الجميع مقرا للداي الحاكم، وهي مجمع للعديد من الدور والملاحق « ففي الجهة اليمنى عند المدخل توجد المباني الخاصة بالداي ذات طراز معماري جميل، تتوجها أعمدة رائعة الجمال، وأروقة غنية بالزخارف، ولا تزال في هذه المباني أقبية وزنازن صغيرة تثير الفضول، وقد كانت فيما مضى الحظيرة القديمة للداي، وهي بمثابة جناحه الخاص، يضم حريمه وجواريه، فكانت تعرف بغرف الحر ملك الجميلة والمزخرفة بالزخارف الذهبية وأخرى مختلفة، وتطل على حديقة النباتات النادرة»²⁷.

وواصل باقو وصف مدخل القلعة مركزا على تحصيناتها العسكرية، فذكر أن فوق بابها حامل مدفع موجه نحو الشارع الطويل الذي يقطع المدينة، مشيرا أن هذا النوع من المدافع موجود بكثرة في القلعة، وأن عدد المدافع الموجهة نحو الداخل لصد التمردات الداخلية أكثر من عددها الموجه نحو الخارج لصد الأخطار الخارجية. وأشار باقو إلى أحد القوانين الخاصة بطائفة اليهود عند مرورهم عبر هذه البوابة، فقد أُلزموا بالانحناء، مطأطئين الرأس، وغاضين لأبصارهم، وفي حالة إذا قاموا بإخلال هذا النظام يتعرضون إلى عقاب شديد في سقيفة الباب. ولا تزال الأغلال - حسب باقو - التي يتم بها معاقبة المتمردين منهم موجودة في مدخل باب القلعة.²⁸ (لوحة رقم 03)

وحضي القسم الخاص بالديوان قد حضي باهتمام المؤرخين والرحالة الفرنسيين، حيث وصفها كل من بافو وبونافون وصفا دقيقا، وذكر أنه المكان الذي شهد حادثة المروحة الشهيرة²⁹. لأنه كان مركز حكم الدولة الجزائرية، ومقر خزينتها التي طالما جذبت أنظار الفرنسيين، وكانت هدفهم بمجرد احتلالهم المدينة. (لوحة رقم 04) و(لوحة رقم 05) و(لوحة رقم 06).

وبالقرب من الغرفة التي شهدت حادثة المروحة توجد الأروقة المقببة التي فيها الخزينة المالية للدولة، التي احتوت على كنوز ثمينة، ويضم هذا القسم من القلعة المسجد التي تزينه الأعمدة الرخامية البيضاء الجميلة بينما كان الرخام الأحمر الثمين يزين أروقة الداي، إلى جانب وصفه لمبنى البارود ذوقية دائرية مرتفعة قليلا عن سطح الأرض³⁰.

واحتوت القلعة على حديقة جميلة محاطة بأسوار عالية كثيفة الأشجار المزهرة وتجوب فيها الغزلان الجميلة، وأضاف بافو أن هذا القصر قد تعرض للتدمير والنهب على يد الجيش الفرنسي أثناء احتلاله المدينة، ولم يبق من جماليات هذا القصر إلا بعض النوافير الأنيقة، والزخارف الذهبية الدالة -حسب تعبيره- عن عهد قد انتهى وبقي في التاريخ، بعد أن تحولت القصبة إلى ثكنة عسكرية³¹.

أما الطبيب بونافون الذي رافق الحملة فيبدو أنه وصل إلى القلعة عن طريق باب الجديد، الواقع في الجنوب الغربي عبر المسلك الضيق

والصعب -حسب وصفه- الذي يوصل إلى القسبة أو القلعة، وهي تحتوي على مقر الدايات، ومخازنهم، وكنوزهم، تفصلها عن المدينة سور مرتفع مدعم بالمدافع، (لوحة رقم 07) وفيه باب كبير ذو مصراعين عليه كتابة أثرية باللغة العربية، ويؤدي المدخل إلى رواق مظلم مزين بنافورة رخامية جميلة ذات شكل جميل، ينبع منها مياه منعشة.

ويواصل الطبيب وصفه لقصر القلعة فيقول أن المتجه إلى يسار المدخل يصل إلى ساحة الديوان الذي يعتبر أهم أقسام هذا المبنى المفروش بالرخام، ومحاط برواق مغطى مكون من صف من الأقواس ذات طراز مغربي، مرفوعة بأعمدة من الرخام الأبيض، وتوجد في وسط ساحتها نافورة مع سلسبيل محاطة بشجر الليمون التي تخفف من أشعة الشمس. أما الجهة المقابلة لباب مدخل قصر الداى فقد عُني بزخرفته، فجاءت متنوعة وثرية لاحتوائها على صفين مزدوجين من الأعمدة، تزينها مرايا ذات أطر مختلفة ومشكاة للإنارة وستائر ذات حواشي جميلة، وهناك دكّات على شكل طولي، وعلى أحد جانبيها دكة غطت بزرابي من قماش قرمزي اللون، وعليها كان مجلس الداى حين يستقبل التجار والقناصل أو يفصل بين المنازعات، وأشار الطبيب بونافون بدوره إلى أن هذا المكان قد شهد حادثة المروحة الشهيرة.³² وتحت هذا الرواق في أقصى هذه الدكة - الخاصة بمجلس الداى - يوجد باب الخزينة التي زودت بأقفال منيعة وقفل من حديد، وتقضي هذه الباب إلى سقيفتين أو ثلاث، فيها فتوحات صغيرة عالية دون نوافذ، فصلت السقائف المذكورة بجدران مزدوجة، حيث كان يُلقى

فيه بأطنان من السكك الفضية، والذهبية الواردة من دول أجنبية عديدة كالبلوجو الجزائري (Boudjou) إلى العملة المكسيكية كوادروبك (Quadruple).³³

وقد شدّ انتباهه وإعجابه الجناح الخاص بالداي أين يقضي أوقات راحته، فوصف ساحة الديوان الداخلية المؤدية إلى الجناح الموجود في المستويات التي تعلو صحن الديوان، وهي كالتالي :

- المستوى الأول يتكون من الأروقة أين توضع المحامل التي يجلس عليها الداي لسماع الموسيقى، ويتصل هذا المستوى بسقيفة تحمل بطارية موجهة نحو المدينة، وهناك درج يؤدي إلى الرواق العلوي، وينفتح على أربع غرف طويلة، وهي خاصة بالداي، كما يوجد باب سفلي يؤدي إلى جناح الحريم، مكون من ست غرف صغيرة محاطة بأسوار عالية.³⁴

كما تعرض الطبيب بونافون إلى وصف المسجد الواقع داخل القلعة، باعتباره مبنى رائع الجمال، وكانت ساحته الداخلية مفروشة بزرابي ثمينة. ومن المرافق الأخرى الموصوفة، مبنى قاعة السلاح (لوحة رقم 10)، والمخازن، والإسطبلات، ومساحات زرعت بأشجار نادرة وحدائق وأكشاك، كما خصص مكان للحيوانات المفترسة مثل السباع والنمور، وحيوانات أخرى، وكان بجانب هذه الحضيصة أحواض شجر الياسمين التي تنتزه بينها نساء الداي، ولقد حصنت هذه المرافق بسور من أربعين قدما ينتهي بمبنى مسطح وضع

فوقه خمسون مدفعا، صبغت باللونين الأخضر والأحمر، وقد خصص نصفها للدفاع عن المدينة من ناحية الفحوص (البساتين)، أما الأخرى فوجهت إلى الداخل لقمع التمردات أو الثورات الداخلية.³⁵ وهو في هذا الوصف يؤكد ما سبق من معلومات التي أوردها الفرنسي بافو.

وانفرد في حديثه عن قصر الداى، بوصف لأثاث الجناح الخاص بالحريم، فهو من أهم المصادر التي نقلت صورة هذا القسم من القلعة، وهيئته في العهد العثماني. فذكر أن أثاث هذا الجناح يتميز بالأناقة، فالزرابي المفروشة كانت من أثن المنسوجات، كما أقيت في كل نواحي الغرفة أقمشة مذهبة وفضية، ووسادات من كل الأحجام والأشكال من نوع الجوخ أو الأطلس، وهي ذات زخارف عربية، ومرايا وبلورات لا تعد ولا تحصى.

أما عن أثاث الغرف فهي من خشب الجوز الصلب المطعم بالزخارف البرونزية المزدانة بوردة ذهبية اللون، كما توجد بالغرفة مجالس صغيرة في كل جوانب الغرفة وكل هذا في جو من الورود والياسمين والعود والعنبر، كما يوجد في جناح الحريم عدد كبير من الطاولات وصناديق مصنوعة من خشب بالآبانوس الآسيوي الثمين، المرصع بالعاج وأواني خزفية الصينية، وغيرها من الأثاث الذي لم يكن معروفا في أوروبا.

أما باقي الغرف في جناح الداى فاتصفت بالبساطة، من زرابي والمجالس وهو الأثاث الوحيد الذي يزينها، إلى جانب أدوات

أخرى كالأسلحة، وبارومتر (أداة قياس)، والنظارات البحرية، وأما باقي الأثاث فقد أخذها الداوي.

والحاصل أن بونافون زوّدنا بونافون بتقييم فني لمعمار قلعة الجزائر من خلال وصفه لبعض أجزاء القصبية كالجامع وساحة الديوان وجناح الحريم، بوصفها نموذجا أصليا للفن المعماري الجزائري ذو الطابع

الموريسكي، وذلك لما احتوته من تداخل في الزخارف ذات الأشكال المختلفة، والأقواس الجميلة، والأعمدة الدائرية والمثلثية، ومنها المنفردة أو المزدوجة، هذا إلى جانب أروقة ذات أقواس بيزنطية ذات تفاصيل فنية، فيالي جانب الغرف الجميلة، والحمامات، أعطيت لهذه المباني حيوية بإدخال نافورات المياه الجارية التي تضيف رطوبة وتنعش الهواء، وتضلل عليها أشجار مختلفة من ليمون أو موز ودوالي العنب وأعداد من النباتات النادرة والجميلة التي تزين بها المنتجع.³⁶

كما كانت تحوي القلعة على جناح خاص بالبايات المسؤولين على المناطق الرئيسية مخصصة لاستقبالهم حين يزورون المدينة لتقديم ضرائب الدنوش، والهدايا للداوي.³⁷ (لوحة رقم 8)

ولم تغفل المصادر الفرنسية الحديث عن مصير القلعة في العهد الفرنسي بعد الاحتلال عام 1830، فبعد زيارة الطبيب بونافون مدينة الجزائر للمرة الثانية عام 1881 م لاحظ التغييرات التي طرأت على القلعة، وهو ما خيب ظنه، حيث اطلع على الحالة المزرية التي

آلت إليها القصبه ، فالمسجد الذي كان يتمتع بجماليات كثيرة، من صحن مبطل بالرخام الأبيض والأسود ، وأعمدته البديعة الحلزونية والمزدوجة وأروقته ذات الأقسام الفنية التي تكوّن مجموعة رائعة، تحوّل إلى مخزن للأسلحة ولطخت جدرانها بلون الفحم الأسود، وأصيبت أعمدته بالتصدع.(لوحة رقم 11)

وبصفة عامة ذكر بونافون أن كل من مدينة الجزائر والقلعة عرفت تغييرا كبيرا في العهد الفرنسي، فبعد أن كانت العطور والروائح الطيبة تملأ المكان، حلت محلها الروائح الكريهة التي ملأت الشوارع، ولا يمكن تخيل وضعية أكثر تلوثا من هذه³⁸.

بعد أن فقدت أهميتها كمركز للدولة الجزائرية، والبقعة التي تصد عليها البعثات الدبلوماسية من كل أنحاء العالم، أصبحت القلعة طيلة الاحتلال الفرنسي، مقرا لمصلحة جيش الاحتلال كثكنة عسكرية ثم مستشفى عسكري.أما بعد الاستقلال استخدمت كمساكن شعبية نتيجة للهجرات القادمة من الريف الجزائري بطريقة عشوائية وهو ما ساهم في تدهور حالتها وطمس معالمها الأثرية والتاريخية.(لوحة رقم 9)

إلا أنه في فترة الثمانينات التفتت الدولة الجزائرية إلى هذا المعلم التاريخي في محاولة لإعادة اعتباره، حيث كلفت بعض المكاتب المختصة أبرزها المكتب البولوني P. K. Z لإعادة استخراج مخططات القلعة مع وضع دراسة ترميمية لكافة هياكلها :

يتبين من خلال الدراسة السابقة للقلعة أو قصبة مدينة الجزائر أن هذا المعلم الحضاري حضي باهتمام بعض الفرنسيين أثناء مرافقتهم للحملة الفرنسية، من أهمهم الطبيب بونافون وبافو، وذلك باعتبارها مقرا للسلطة الجزائرية، ورمزا للدولة. ويمكن القول أن اهتمامهم كان منصبا على وصف جناح الداي وذلك لأنه احتوى على الخزينة المالية للدولة، وفي نفس الوقت أبرزوا جماليات المعمار الجزائري، حيث أوردوا وصفا دقيقا ومفصلا لشكل البنايات المكونة للقلعة ووظائفها ومواقعها وديكوراتها، وهو دليل حسب وصفهم على جانب الرفاهية ورفي الذوق الجزائري في اقتناء التحف والنفائس من كل أنحاء العالم وجلبها إلى قصر القلعة، فضلا عن طرازها المعماري الراقى ولاسيما الجناح الخاص بالحریم ونوعية أثاثه، ومرافقه ومنتزهاته والحيوانات النادرة التي احتوته. فكان وصفهم ممیزا لنقلهم الصورة التي كانت عليها الحياة اليومية داخل قصر الداي في العهد العثماني.

فكان للقلعة في العهد العثماني وظائف هامة، فهي مقرا للحكام الجزائريين منذ عام 1817، ومركزا دفاعيا هاما عن المدينة. وبالرغم من محاولات طمس المعالم التي عرفتها القلعة سواء في عهد الاحتلال الفرنسي، أو في فترات الإهمال الذي لحقها في أوائل عهد الاستقلال إلا أنها بقيت محافظة على أهم معالمها وأجزائها المعمارية الفنية الراقية، من مصنع ملح البارود إلى

قصر الداي والقصر المخصص لاستقبال البايات، ومسجد الداي، وهي معالم لا تزال تحتفظ بهيئتها الأولى.

وتعتبر عمليات الترميم الجارية في القلعة بالغة الأهمية، فهي إلى جانب أنها محاولة جادة لاستعادة وجه القلعة الأصلي، تعتبر في ذات الوقت استرجاع للتراث الحضاري الجزائري الإنساني.

الهوامش :

1- (G) Guiauchain ; Alger, imprimerie Algerienne, Fontana, 1905, p.1

2- Le Tourneau ; «Aldjazair ».In encyclopedie de l'Islam, t II, Brill, Paris, 1977, p.533

³⁻ (ألبير) ديفولكس؛ خطط مدينة الجزائر من خلال مخطوط ديفولكس والأرشييف العثماني، ترجمة وتحقيق وتعليق بن حموش مصطفى وبلقاضي بدر الدين، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2004، ص20.

4-- (R) Dokali ; Les mosquees de la periode Turquie à Alger, SNED, ALGER, 1974, p.13

⁵⁻ (عبد القادر) نور الدين؛ صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، كلية الأدب الجزائرية، قسنطينة 1965، ص31

6- (الشريف) الإدريسي؛ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق في الجغرافيا الإسلامية، مجلد الأول، الجزء الأولن الإقليم الثالث، إصدار فؤاد سزكين منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا، 1992.

⁷⁻ بنى يوسف بن تاشفين المرابطي المسجد الكبير في القسم السفلي من المدينة في عام 590هـ / 1096م، يراجع؛

- R.Dokali, op, cit, p15

⁸⁻ أبو عبيد الله البكري؛ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك. في الجغرافيا الإسلامية، مج 134، نشر مك جوكن دي سلان، إصدار فؤاد سزكين، منشورات معهد العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، 1993، ص66

⁹⁻ شمس الدين محمد الدمشقي، كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، في الجغرافيا الإسلامية، مجلد 203، نشره، م. فرين ثم أغسطس مهران، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، إصدار فؤاد سزكين، فرانكفورت، ألمانيا، 1994

¹⁰⁻ ناصر الدين سعيدوني؛ دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، 2003، ص. 129.

11 -Le Tourneau, « Aldjazair », In Ency, t II, p. 533

- ²- مؤلف مجهول ؛ كتاب غزوات عروج وخير الدين، اعتنى بتصحيحه وتعليق حواشيه، نور الدين عبد القادر، طبع على ذمة المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية لصاحبهما رودوسي قدور بن مراد، عدد 1، الجزائر، 1934/1353، ص 29
- 13- Le Tourneau; « Aldjazair ».In Encyclopédie de l'Islam, tII, p. 534
- 14- عبد القادر حليمي : مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها قبل 1830، ص 219
- ⁵- مؤلف مجهول، كتاب غزوات عروج وخير الدين، ص ص 41، 42
- 16- Guiauchain, Alger, p. 1
- 17- قلع، القلع : انتزاع الشيء من أصله، والقلّاعُ : الحجارة والقلّاعُ : صخور عظام متقلّعة، والقلاعةُ : صخرة عظيمة وسط فناء سهل، والقلعةُ : صخرة عظيمة، تتقلّع عن الجبل، صعبة المرتقى، قال الأزهري : تُهالُ إذا رأيتها ذاهبة في السماء، والقلعةُ : الحصن الممتنع في جبل، وجمعها قِلاعٌ وقَلَعٌ وقَلْعٌ، وأقلعوا بهذه البلاد إقلاعاً بنوها فجعلوها كالقلعة، وقيل القلعةُ بسكون اللام، حصن، يراجع؛ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين) : لسان العرب، مادة (قلع)، مجلد 8، دارصادر، بيروت، 1968، ص ص 290-294.
- 18- (Dr) Bonnafont ; Douze ans en Algérie 1830-1842, Librairie de la société des gens de lettres, Paris Royal, 1883, p. 129- 130.
- 19- Ibid, p. 130
- 20- H Klein ; Feuilles d'Eldjezair, F Fontana, Alger, S.D, p.83
- 21- القَصَبَة : جوف القصر وقيل القصر، وقصبة البلد، مدينته، وقيل معظمه، وقصبة السّواد، مدينتها، والقصبة : جوف الحصن، يُبنى فيه بناءً، هو أوسطه، وقصبة البلاد، مدينتها، القصبة : القرية، وقصبة القرية : وسطها؛
- يراجع : ابن منظور، لسان العرب، مادة (قَصَبٌ)، مج 1، ص ص 676-677.
- 22- أحمد شريف الزهار : مذكرات أحمد شريف نقيب أشرف الجزائر (1168-1246 هـ/ 1754-183 م)، تحقيق، أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980 م، ص 131، 134، 136.
- 23- G. Esquer; Alger et sa région, Paris, Arthaud, 1949, p. 85
- 24- علي خلاصي ؛ قصبة الجزائر، القلعة وقصر الداوي، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر 1984، غير مطبوعة، ص ص 27 و28.

25- (H)Klein, op. cit. p.84

26- (Evariste) Bavoux; Alger voyage politique et Descriptif dans le nord de l'Afrique, Tome deuxième, chez Brockhans et Avenarius, 1841, P. 141

27- (E) Bavoux, Op, Cit, tII p. 137, 138, 140

28- Ibid, p.140

29- عرفت بحادثة المروحة أو ضربة المروحة، والتي أعقبتها عملية احتلال مدينة الجزائر من قبل القوات الفرنسية في جويلية عام 1830 م، ولقد كانت مجرد ذريعة، لأسباب خفية، ففي عهد الداى حسين الذي خلف الداى علي خوجة عام 1818 م، تراكمت الديون الفرنسية لدى حكومة الجزائر، خاصة من تجارة القمح التي كان يديرها الأخوين التاجرين اليهوديين بكري وبوجناح، ولقد تأزمت العلاقات بين البلدين خاصة مع الحوار الحاد الذي دار بين القنصل الفرنسي (دوفال) والداى حسين يوم 29 أفريل 1827 م، يراجع :

- حورية شريد : "الداى حسين والأسباب الخفية لسقوط الجزائر" في حويليات المتحف الوطني للآثار القديمة والإسلامية، ع. 13، 2003.

30- (E) Bavoux, op. cit, tII, p.141

31- (E) Bavoux, op. cit, tII, p.143

32- Dr Bonnafont, Douze ans en Algérie, p.79

33- Ibid, p.80

34- Bonnafont, op, cit, p.80

35- Ibid, p.81

36- Bonnafont, Op, Cit, p.82

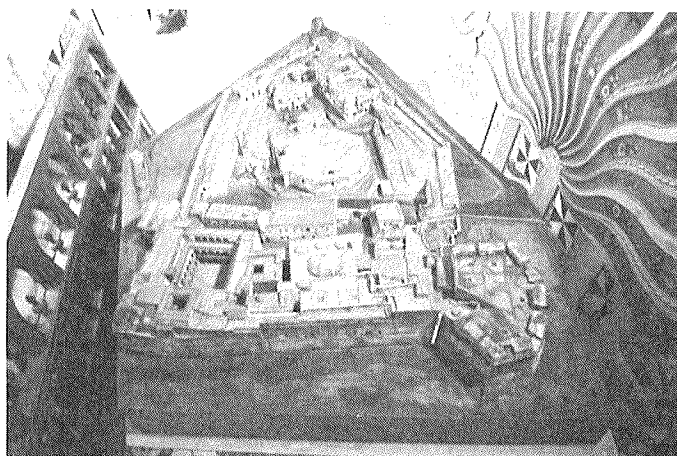
37- الدنوش، هي ضرائب تجمعها الدولة الجزائرية عن طريق محلات التي تخرج في الربيع لاستخلاص الخراج، والزكاة، والأعشار.

لأكثر تفاصيل حول كيفية تقديم البايات لضريبة الدنوش للداى، يراجع : شريف الزهار، المصدر السابق، ص. 35 إلى 46.

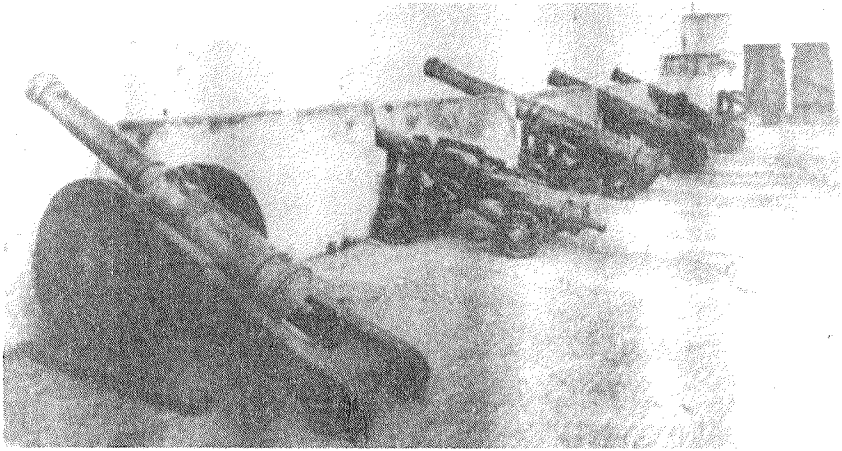
38- Bonnafont, Op, Cit, p. 82, 83, 84



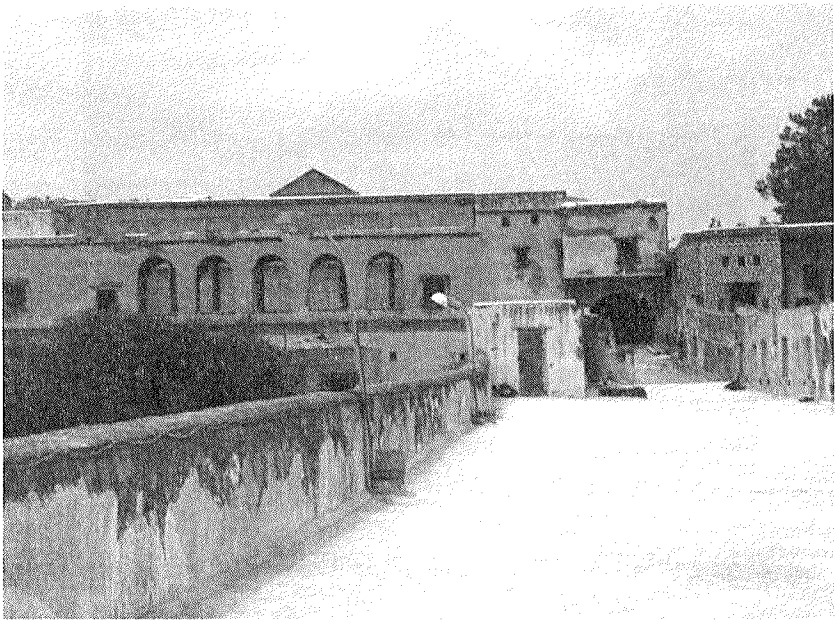
لوحة رقم 01 : مدخل القصبة



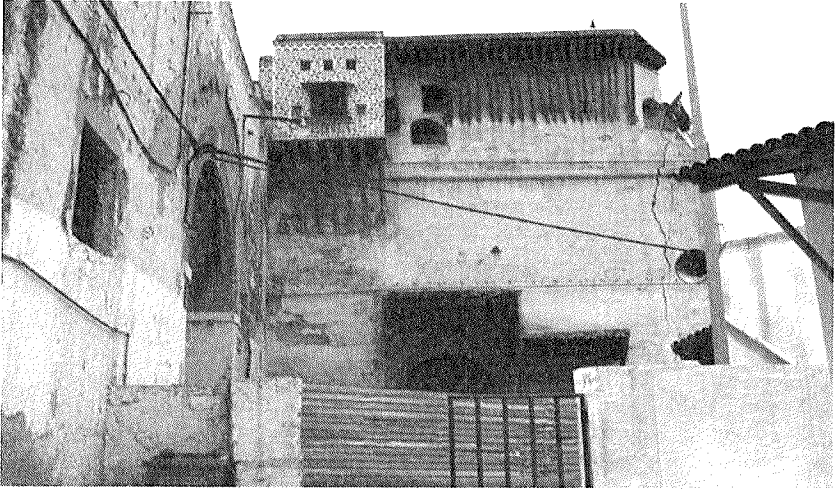
لوحة رقم 02 : مجسم لقلعة الجزائر عن الوكالة الوطنية لحماية الآثار



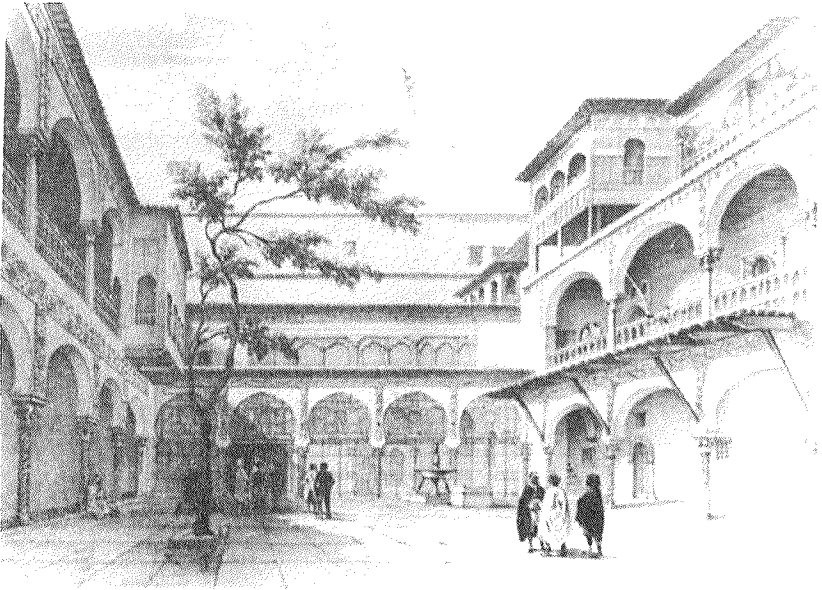
لوحة رقم 03 : صورة للمدافع لتحصينات سور القصبة عن علي خلاصي



لوحة رقم 04 : قصر الداوي مظهر خارجي



لوحة رقم 05 : مدخل قصر الداى



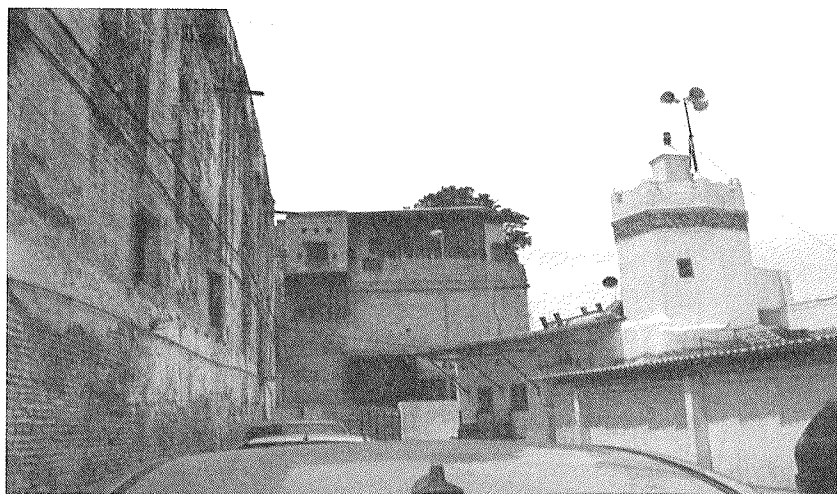
لوحة رقم 06 : لوحة لقصر الداى أثناء العهد الفرنسي عن علي خلاصي



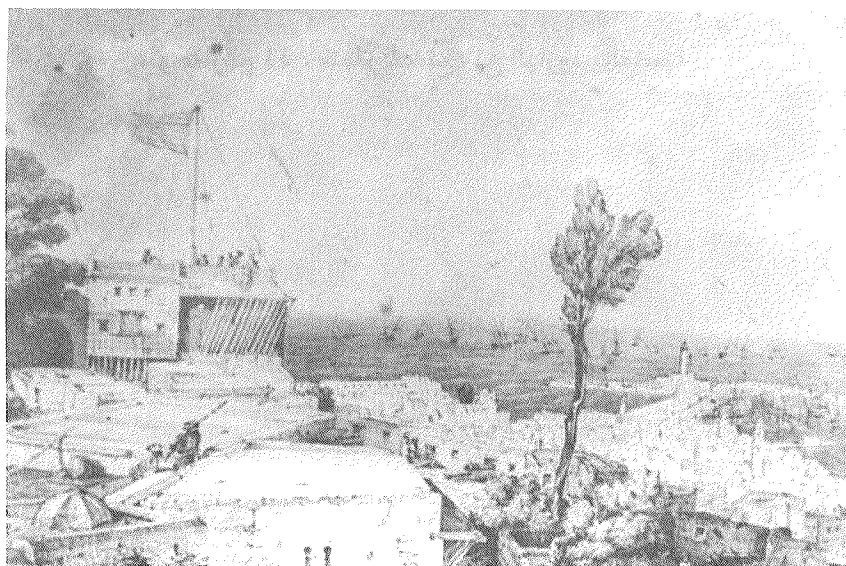
لوحة رقم 07 : منظر لشرفات سور القصبية



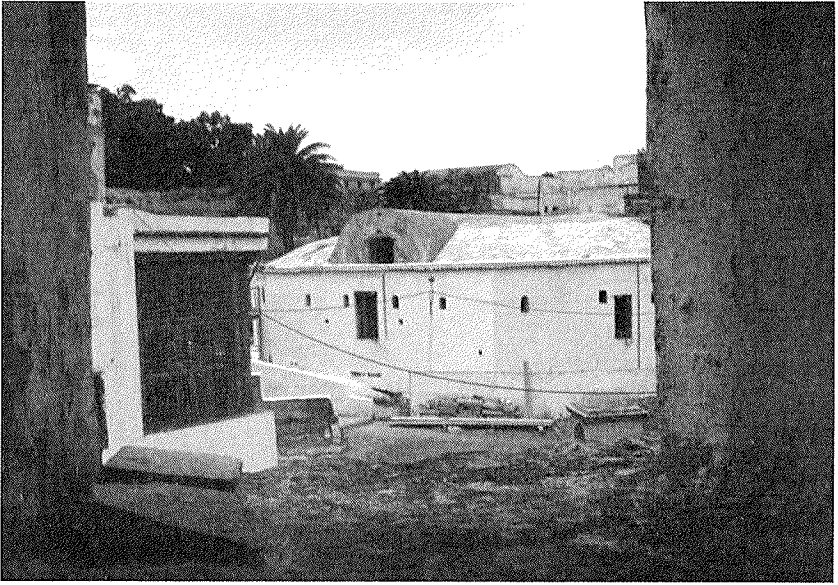
لوحة رقم 08 : منظر لقصر البايات المجاور لمبنى ملح البارود



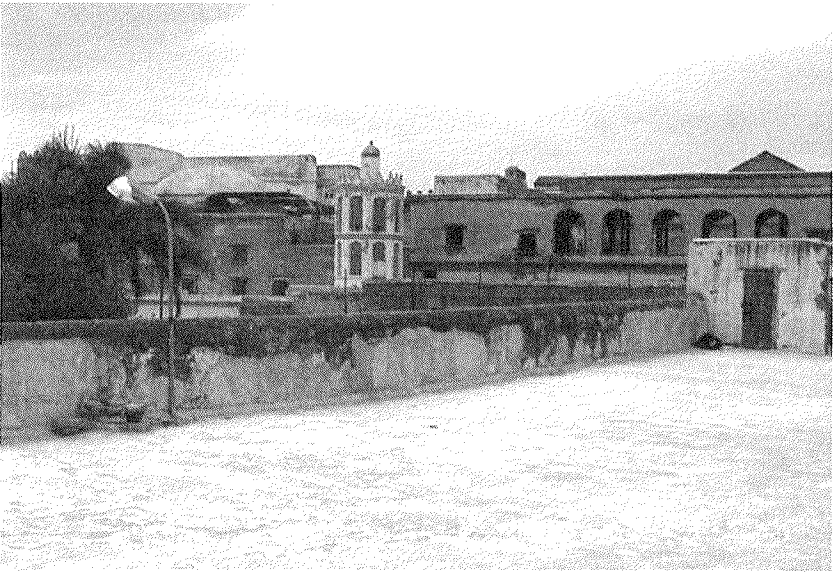
لوحة رقم 09 : مدخل للقصبة من ناحية المسجد البراني



لوحة رقم 10 : القصبة أثناء الحصار الفرنسي للمدينة
عام 1830 عن علي خلاصي



لوحة رقم 11 : منظر لمصنع ملح البارود بالقصبة



لوحة رقم 12 : مسجد الداوي وقصر الداوي

الببليوغرافيا المعتمدة :

1-المصادر :

- الإدريسي (الشريف)؛ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق في الجغرافيا الإسلامية، مجلد الأول، الجزء الأولن الإقليم الثالث، اصدار فؤاد سزكين، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا، 1992.
- ألبير ديفولكس؛ خطط مدينة الجزائر من خلال مخطوط ديفولكس والأرشييف العثماني، ترجمة وتحقيق وتعليق بن حموش مصطفى، وبلقاضي بدر الدين، المجمع الثقافى، أبو ظبي، 2004.
- البكري (عبد الله بن عبد العزيز)؛ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك. في الجغرافيا الإسلامية، مج134، نشر مك جوكن دي سلان، إصدار فؤاد سزكين، منشورات معهد العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، 1993.
- الدمشقي (شمس الدين محمد)؛ كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، في الجغرافيا الإسلامية، مجلد 203، نشره : م. فرين ثم أغسطس مهران، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، إصدار فؤاد سزكين، فرانكفورت، ألمانيا، 1994.
- الزّهار (أحمد شريف)؛ مذكرات أحمد شريف نقيب أشراف الجزائر(1168-1246 هـ/1754-183 م)، تحقيق، أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980م
- مؤلف مجهول؛ كتاب غزوات عروج وخير الدين، اعتنى بتصحيحه وتعليق حواشيه، نور الدين عبد القادر، طبع على ذمة المطبعة الثعالبية، والمكتبة الأدبية لصاحبهما رودوسي قدور بن مراد، عدد 1، الجزائر، 1353/1934.

2- المراجع باللغة العربية :

- خلاصي (علي)؛ قصبة الجزائر، القلعة وقصر الداي، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر 1984، غير مطبوعة.
- سعيدوني(ناصر الدين)؛ دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، 2003.
- شريد (حورية)؛ «الداي حسين والأسباب الخفية لسقوط الجزائر». في حوليات المتحف الوطني للآثار القديمة والإسلامية، ع. 13، 2003
- عبد القادر نور الدين؛ صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، كلية الأدب الجزائرية، قسنطينة، 1965.

المراجع باللغة الأجنبية :

- Bavoux(Evariste) ; Alger voyage politique et Descriptif dans le nord de l'Afrique, Tome deuxième, chez Brockhans et Avenarius, 1841.
- Bonnafont ; Douze ans en Algérie 1830-1842, Librairie de la société des gens de lettres, Paris Royal, 1883
- Dokali (R);Les mosqueés de la periode Turque à Alger, SNED, ALGER, 1974.
- Guiauchain (G) ; Alger, imprimerie Algerienne, Fontana, 1905
- Esquer(G); Alger et sa région, Paris, Arthaud, 1949
- Klein(H); Feuilles d'Eldjezair, F Fontana, Alger, S.D
- Tourneau (Le); «Aldjazair encyclopedie de l'Islam, T II, Brill, Paris, 1977.